

الاعتقاد ببشريّة القرآن الكريم بناءً على نظريّة أفعال الكلام (تحليل ونقد نظريّة مجتهد شبستري في معرفة القرآن)^١

حميد رضا شاكرين^٢

باعتقاده على بعض النظريّات المعاصرة في فلسفة اللغة، خاصّة نظريّة أفعال الكلام؛ استحصل شبستري على نتائج، تجعل، بناءً عليها، كلام الله تعالى مع الإنسان عن طريق الوحي الرسالي أمرًا غير ممكن، و[تُفْضِي إلى] الاعتقاد بسدّ باب تفاهمه [تعالى] اللغويّ مع الناس. النتيجة الواضحة لهذا الظن، هي أنّه لا يمكن للقرآن أن يكون كلامًا إلهيًّا، بل هو كلام بشريّ في اللفظ والمعنى. ونحن الآن، من خلال إلقاء نظرة على الفلسفة المعاصرة للغة، بصدّد شرح أهم مرتكز لشبستري في مجال معرفة القرآن الكريم، وإعادة التنقيب عن كفيّة دلالتها في مجال معرفة القرآن وبشريّته.

١. المصدر: المقالة بعنوان «بشريّ انكاري قرآن كريم بر اساس نگره افعال گفتاری (بررسی و نقد نگره قرآن شناختی مجتهد شبستری)»، في مجلّة كتاب نقد، التي تصدر في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة باللّغة الفارسيّة، العدد ٧٤ و٧٥، ربيع وصيف ١٣٩٤ هـ.ش، الصفحات ١١٥ إلى ١٣٦.

الترجمة: رلى السعيدى.

٢. أستاذ مساعد في معهد دراسات الثقافة والفكر الإسلامي.

توضيح المسألة

يرى شبستري أنه فقط من خلال امتلاك معنى ومفهوم عن اللغة، يمكن حيازة تصوّر عن الكلام، الحوار، التفاهم وأمور من هذا القبيل^١. ومن أجل توضيح المسألة؛ نقل الكلام التالي عن ألبرت كيلر^٢، الذي يبيّن من وجهة نظره حقيقة اللغة والأركان الحتمية لها:

اللغة هي نظام من أشكال الإبداءات، ظهر وتكامل من خلال الإنسان. يقدّم الإنسان هذا النظام ليُبدى نفسه من خلاله^٣، وليجعل نفسه مفهومًا للآخرين، والآخرين مفهومين له، وليُنظّم عبره معارفه، ويُطلع الآخرين عليها، وليتصارع بأشكال مختلفة مع الواقع، ويتواءم معه^٤.

ثم ينقل أركان اللغة، بهذا النحو:

اللغة، بمثابة نظام من أشكال الإبداءات، تتقوم بخمسة «محاور»^٥:

١. مجتهد شبستري، «قراءت نبوى از جهان»، ٩٢.

2. Albert Keller

٣. يحتمل هذا الكلام تفاسير مختلفة، بعضها قابل للنقد، ويبتني على فرضيات يمكن خدشها، لكنّ نعتذر عن البحث فيها مراعاة للاختصار.

4. Keller, *Sprachphilosophie*; 25 & 42.

٥. لا يوجد في اللسانيات وفلسفة اللغة اتفاق في وجهة النظر حول محاور اللغة. على سبيل المثال، يرى رومان ياكوبسون (١٨٩٢م - ١٩٨٢م) عالم اللسانيات الروسي، أنه تدخل ستة عناصر في كلّ تواصل لغوي، وهي: المرسل، الرسالة، المُتلقي، الاتصال، الرمز، العلامات الصوتية، السياق (راجع: أحمدى، ساختار وتأويل متن، ٦٥).

الاعتقاد ببشرية القرآن الكريم بناء على نظرية أفعال الكلام ❖ ٣٠١

«محور المتكلم الذي يصدر عنه الكلام، محور السامع أو المخاطب الذي يتوجه إليه الكلام، محور سياق النص أو سياق الكلام^١، الذي هو محل اللغة، محور الجماعة وأهل اللغة، حيث اللغة بينهم هي أداة التفاهم المشترك ولغتهم جميعاً، ومحور المضمون» الذي تبيّنه اللغة^٢.

ثم يستنتج مجتهد شبستري هذه الملاحظات الفلسفية حول اللغة، التي تجد اليوم أكثر أنصارها بين فلاسفة اللغة، وتوضح أن اللغة هي ظاهرة إنسانية جماعية، ولها أركان ومقومات مختلفة، وتحقق فقط في موضع تكون فيه جميع تلك الأركان والمقومات موجودة، وبفقدان بعضها؛ تنتفي اللغة بشكل كامل^٣.

أشار أيضاً مجتهد شبستري إلى نظرية «الألعاب اللغوية» ليفيغشتاين^٤ ونظرية «أفعال الكلام»^٥ لأوستن^٦. وبناء على هذه النظريات، يرى أن الوحي اللغوي؛ أي تكلم الله تعالى ورسالته اللغوية، يفتقر إلى المتكلم وإلى أركان اللغة الأخرى، ويرى في النتيجة، أنه أمر لا معنى له ولا يمكن التوصل إليه.

١. سياق الكلام context أو context كما في الإنجليزية.

٢. مجتهد شبستري، «قراآت نبوي از جهان»، ٩٣.

٣. م. ن.

٤. فيغشتاين (١٩٥١ - ١٨٨٩) (Wittgenstein): فيلسوف بريطاني من أصل نمساوي، كان له دور مهم في تحولات الفلسفة التحليلية.

5. Speech Acts

٦. أوستن John Langshaw Austin فيلسوف لغة إنجليزي، وأستاذ فلسفة الأخلاق في جامعة أكسفورد.

ويرى في موضع آخر، أنّه في الفلسفة الجديدة، ومن وجهة نظر أكثر مفكّري وفلاسفة اللغة، فإنّ النسخة الأساسيّة للغة الإنسان هي الكلام الشفاهي، وهي ليست مجموعة من العلامات التي يوجد لها شخص، والتي تدلّ على سلسلة من المعاني، بل إنّ كلّ كلام شفاهي هو «نشاط إنساني» أو act [فعل]، ويُصنع ويُصاغ المعنى عبر الحوار ومرافقة السامع للمتكلّم^١.

والآن، وبما أنّ مجتهد شبستري اعتمد كثيراً على نظريات فلاسفة اللغة المعاصرين، خاصّة على نظريّة أفعال الكلام، ونظّم، إلى حدّ ما، وجهة نظره بناء عليها؛ يتطلّب الأمر أن نشرح وجهة نظره من هذا المنظور. لذا، يلزم بداية إلقاء نظرة مقتضبة على هذه النظرية، ثمّ تقييم دلالتها على وجهة نظر مجتهد شبستري في إفراغ الكلام الإلهي من أركان اللغة، وفي النتيجة الاعتقاد ببشريّة القرآن الكريم.

نظريّة أفعال الكلام

نظريّة أفعال الكلام هي نظريّة فلسفيّة حول اللغة، عرضها جون أوستن، ونُشرت بعد وفاته ضمن كتاب عنوانه كيف تصنع الأشياء بالكلمات^٢. المدعى الأساس لهذه النظرية، هو أن «العنصر البنيوي للتواصل اللغوي هو الفعل الكلامي»^٣.

١. يجدر القول إنّ مجتهد شبستري لم يقدّم هذه المحاضرة رامية بشكل مباشر إلى الاعتقاد ببشريّة القرآن الكريم، إلّا أنّ بعض المطالب التي ذكرت فيها لها صلة وثيقة بهذه المسألة، ويمكن أن تكون مبنّى لها: مجتهد شبستري، «إيهان محمّد وانسانيت زبان قرآن» (مجتهد شبستري، هرمنوتيك: كتاب وسنت).

2. *How To Do Things With Words.*

٣. سرل، أفعال كفتاري، ١١٦.

الاعتقاد ببشرية القرآن الكريم بناء على نظرية أفعال الكلام ❖ ٣٠٣

قبل أوستن، أشار ستراوسون أيضًا إلى هذه المسألة، أنه لا يمكن تبين وتحليل الجملة عن طريق البناء النحوي وقواعده اللغوية فقط. عوضًا عن ذلك، يجب دراسة التعابير اللغوية بمثابة أفعال وسلوك وأفعال المتكلمين؛ إذ إنَّ هؤلاء يمكنهم القيام عبر الأقوال الكلامية بأعمال مختلفة^١.

مع ذلك، فإنَّ تبين مباني ومبادئ نظرية أفعال الكلام، وتنسيقها وتنظيمها، يدين في الدرجة الأولى إلى جون أوستن. هو يرى أنه عندما يجري المتكلم كلامًا على لسانه ويؤدِّي جملاً، فإنَّه ينجز ثلاثة أفعال مختلفة، كالآتي:

أ) الفعل الكلامي^٢؛ أي الجري على اللسان، وإبداء جملة ذات معنى^٣.

ب) الفعل المتضمن في الكلام الفعل الإنجازي؛ أي الأفعال التي يؤدِّيها المتكلم ضمن كلامه، من قبيل: الحكم، الالتزام والتعهد، التوضيح^٤، الإخبار عن شيء، السؤال، المدح والثناء، الأمر والنهي و....

1. Searle, "Austin on Locutionary and Illocutionary Acts", 537.

٢. [المنطوق اللفظي].

3. Locutionary Act

٤. الفعل الإنجازي أو Illocutionary act: الفعل الذي يهدف للتأثير في السامع أو المخاطب بدفعه للقيام بفعل ما؛ كالوعد والأمر والسؤال....

5. Verdict

6. Commission

7. Exposition

ج) الفعل التأثيري^١، أو [المؤدّي] عبر الكلام^٢. المراد بهذا القسم، الأثر أو ردود الفعل التي تحدثها في السامع الأفعال المتضمّنة في الكلام. على سبيل المثال: عندما يخبر المتحدث عن شيء، فإن السامع إما أنه يُصدّق أو يُكذّب، وإما يُسرّ به أو لا يُسرّ به....

بعد أوستن، بيّن تلميذه جون سيرل هذه النظرية وإطارها النظري في كتاب أفعال الكلام، بحث في فلسفة اللغة والعبارة والمعنى، وكشف عن لوازمها ونتائجها. يرى جون سيرل أنّ نظرية أفعال الكلام تقبل التعميم والتوافق عليها؛ أي إنّها غير مقيدة بالأشخاص أو بإيديولوجيات خاصّة، ويمكن لكلّ شخص أن يتأمل فيها. ورغم الالتزام بالفلسفات والإيديولوجيات والأذواق المختلفة، فإنّه يمكن التوافق عليها^٣.

بغض النظر عن البحث حول مقدار صحّة وفساد أو كمال ونقص نظرية كهذه، فإنّ الدور يصل الآن إلى إعادة التنقيب عن دلالتها في مجال معرفة القرآن. هل تقتضي هذه النظرية أن يكون تكلم الله سبحانه وتعالى أمراً غير ممكن؟ [إذا كان الأمر كذلك] فهي تتعارض مع وجهة نظر المسلمين التي أجمعوا عليها على طول التاريخ، والقائلة بأنّ القرآن الكريم كلامٌ إلهي، وأنّ الوحي الرسالي له حقيقة لغوية. أوليس لها من الأساس دلالة كهذه، ولا تتضمن معارضة لتكلم الله جلّ

١. الفعل المتعلّق بتأثر السامع واستجابته.

2. Perlocutionary Act

٣. عبداللهي، «نظرية أفعال گفتاري»، ٩١-١١٩.

الاعتقاد ببشريّة القرآن الكريم بناء على نظريّة أفعال الكلام ❖ ٣٠٥

جلاله، ولأنّ القرآن الكريم إلهي في اللفظ والمعنى؟ يتطلّب الأمر في هذا المجال تبين الأركان الأساسيّة ومباني نظريّة أفعال الكلام ومرتكزات مجتهد شبستري الأخرى، والبحث حول دور ودلالة كلّ منها على تكلم الله تعالى.

مباني [نظريّة] أفعال الكلام ودلالاتها في مجال معرفة القرآن

الأركان والمباني النظرية الأكثر أساسية في نظرية أفعال الكلام، هي كالآتي:

١. مبني قابليّة التعبير^١

أول ركن في [نظريّة] أفعال الكلام، هو أنّ كلّ ما يقصد، قابل للتعبير عنه أيضًا، فلا يوجد معنى مقصود لا يمكن إبدأؤه بألفاظ وعبارات. حتّى إذا كانت لغة خاصّة عاجزة من الناحية الصرفيّة والنحويّة أو فقر المفردات عن بيان بعض المقاصد، فإنّه يمكن إغناؤها وإثراؤها^٢.

بناء على وجهة النظر هذه، فإنّ أحد العناصر المهمّة في التفاهم اللغويّ، هو عنصر القصد. وهنا يطرأ هذا السؤال: ما المانع الذي يمكن أن يوجد في هذا المجال لتكلم

الله تعالى، ويكون [من خلاله] الاعتقاد ببشريّة الوحي أمرًا موجودًا لا محالة؟ مع أخذ النظرية السابقة بعين الاعتبار، فإذا كان هناك مانع، فليس الأمر إلاّ أنّ الله جلّ جلاله لا يمكنه أن يقصد معنى وغرضًا، أو لا يمكنه أن يبيده ضمن إطار لغة وضعيّة خاصّة. إمّا إذا كان قادرًا على القصد واستعمال العلامات اللغويّة، فبأيّ

1. Expressibility

٢. سرل، أفعال كفتاري، ١١٢ - ١١٣.

نحو كان، لا يوجد مشكلة من هذه الناحية لإيجاد تواصل لغويّ. والآن، هل الله تعالى قادر على قصد المعاني وإبداء الكلمات، أم لا؟ حلّ هذه المسألة رهن أن نعلم ماذا يقتضي القصد وإدأؤه، وما الأمور التي يحتاجها؟ ثمّ ننظر ما هي العلاقة بين خصائص الله تعالى وتلك الميّزات والاقتضاءات:

(أ) يتبع القصد قبل كلّ شيء الوعي والإدراك، ولا معنى للقصد والغرض من دون الإدراك، ولا إمكانيّة له. ولربّما لا يكون ممكناً أيضاً قصد انتقال المعاني والمفاهيم في المستويات المتدنيّة للوعي والإدراك، لكنّ في المستويات الأعلى؛ كالإدراك الإنساني، فلا شكّ في وجود قدرة كهذه، وإنّ آثارها واضحة وبيّنة. من ناحية أخرى، نحن نعلم أنّ الله تعالى هو علم مطلق، وله أسمى رتبة ممكنة من الوعي والإدراك، بل هو عينها، وكلّ ما يتمتّع به المدركون الآخرون [من وعي وإدراك] فهو منه أيضاً، ولا معنى لأنّ يكون الإنسان أسمى منه في هذا الوصف الكمالي. بناء عليه، فإنّ الله سبحانه وتعالى الذي له أسمى درجة من الوعي والإدراك، يمكن أن يقصد الإفهام وأنّ تكون له غاية يريد التعبير عنها.

(ب) أيضاً فإنّ استعمال العلامات اللغويّة يحتاج من جهة إلى العلم بالاعتبارات اللغويّة، ومن جهة ثانية إلى نظام وأدوات كافية لإبداء تلك العلامات. بناء عليه، فإنّ هذه المسألة تتبع من ناحية العلم، ومن ناحية أخرى أدوات التعبير. من الناحية العلميّة، كما في الحالة السابقة، فإنّ العلم بالقواعد التي تحكم اللغة، وبالعلامات اللغويّة، لا يخرج عن حيطة العلم الإلهي المطلق، ومن هذه الناحية لا يوجد مانع لتكلم الله سبحانه وتعالى.

الاعتقاد ببشرية القرآن الكريم بناء على نظرية أفعال الكلام ❖ ٣٠٧

ج) يمكن إبداء العلامات اللغوية بنحوين قولي وكتابي. وبعبارة أخرى: علامات سمعية؛ أي الأصوات والأنغام، وعلامات مرئية؛ كالأشكال الكتابية. والله سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق، وهو قادر على الإبداء الصوتي للعلامات اللغوية في كل شيء، كما هو قادر على إبدائها كتابياً في الظواهر المختلفة. بعبارة أخرى: هو الذي جعل الإنسان قادراً على وضع القواعد والعلامات اللغوية، وإبدائها كلامياً وكتابياً، فمن باب أولى أن يكون هو أيضاً قادراً على إيجاد العلامات بأشكال مختلفة، ومن هذه الناحية فلا يتصور وجود مانع يعترض طريقه.

٢. المعنى تابع للقصد والاتفاق

من المباني الأخرى لـ [نظرية] أفعال الكلام، أن هذه الأفعال هي أفعال قصدية، ولها معنى^١. معنى الجملة^٢ هو أمر وضعي واتفاقي، وهو قائم من ناحية بقصد المتكلم، ومن ناحية ثانية تابع للمواضع اللغوية^٣.

يبدو أنه من هذه الناحية أيضاً، لا يوجد مانع يعترض طريق تكلم الله جلّ جلاله. هذه المسألة تتبع من ناحية العلم، وكما مضى، فإن العلم بالعلامات اللغوية لا يخرج عن حيلة العلم المطلق الإلهي. من ناحية ثانية، تقتضي الحكمة الإلهية أنه من أجل إيصال رسالته، فهو لا يحتاج إلى الاستفادة من لغة خاصة^٤. لذا، يمكنه أن يتكلم

1. Meaning

2. Sentence Meaning

٣. سرل، أفعال كفتاري، ١٠١-١٠٧؛ وعبدالله، «نظرية أفعال كفتاري»، ٩١-١١٩.

4. Special Language

مع الناس وفقاً للمواضيع اللغويّة المعهودة بينهم. والوحي اللغويّ هو بنحو دقيق على هذا النحو، والله تعالى يبدي غايته وقصده ضمن إطار اللغة الوضعيّة والعلامات المعروفة بين الناس.

المانع الوحيد المُدعى، هو أنّه من وجهة نظر مجتهد شبستري، فإنّ أركان اللغة غير موجودة في تكلم الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى لا يكلم الناس بنحو مباشر ووجّه لوجه، ويبدو أيضاً أنّ لازم إيصال رسالته غير المباشرة، هو ألا يكون لوسيلة إيصال الرسالة إدراك عن الموضوع، وألا يكون لديها القدرة على إيجاد تواصل لغويّ. فلا جرم أنّ تواصل الله تعالى مع الإنسان عبر اللغة، لا يمكن إقامته في الأساس عبر اللغة، ولا يمكن أن يتحقّق تفاهم. كلامه في هذا المجال هو الآتي:

إذا قال شخص: إنّ ألفاظاً ومعاني معيّنة تُتلى عليّ بنحو خاصّ عبر وسيلة، ملاك على سبيل المثال، ثمّ يقرؤها للمخاطبين، ويقدم نفسه كمكبّر صوت، ويقول: لست أنا قائل هذه الجملة، ففي حدث كهذا، لن يكون هناك، كما يصطلح عليه علماء علم الأصول، «دلالة تصديقيّة»؛ لأنّه لن يكون لهذا الكلام «قائل» بالنسبة للمخاطبين...

هذه الجملة ليس وحسب أنّه ليس لديها قائل، بل لا يوجد فيها ولا أيّ محور من المحاور الخمسة لتحقّق اللغة، ولا يمكن عدّها نماذج عن لغة؛ كاللغة العربيّة مثلاً. من الواضح أنّ المقصود بقائل الكلام، الذي هو الركن الأوّل للكلام، ليس من يحدث الصوت؛ كاللبغاء أو مكبّر الصوت، المقصود بالقائل هو من يمكن لكلامه أن يفهم،

ويمكن أن يُنسب الكلام إليه، والقول: إنَّ هذا الكلام يقوله الشخص الفلاني^١.
وينبغي الآن السؤال: من أيِّ ناحية يُعدُّ الكلام الذي نزل، من ناحية قائل مدرك وله قصد، بلغة بشرية على إنسان مختار، وهو يقرؤه للناس من دون أدنى خلل ونقصان؛ فاقداً لقائل؟ فرضيةً مجتهد شبستري في هذا المجال، هي أنه في هذه الحالة، فإنَّ الوسيلة في الكلام هي كالبيغاء أو مكبر الصوت، تُحدث الصوت فقط. إلاَّ أنَّه بناء على النظريات المعاصرة لفلسفة اللغة، فإنَّ القائل في التواصل اللغوي، هو مَنْ يكون لديه قصد وغاية، ويريد إفهام معنى ضمن إطار الاعتبارات اللغوية. والحال، أنَّ البيغاء ومكبر الصوت، ليسا متكلمين، ويفتقران إلى أوَّل أركان المعنى. إذًا، في هذه الحالة، لا يوجد أيُّ قائل، ولا جرم أنَّ الأركان الأخرى للغة أيضًا، والتي هي فرع لها؛ لن تتحقَّق. بعض إشكالات هذا التصور، هي كالآتي:

(أ) وقع مجتهد شبستري هنا بوضوح في مغالطة؛ إذ بناء على أيِّ منطوق يُفترض أنه إذا نقل شخص رسالة من طرف آخر، مع مراعاة الأمانة الكاملة، ومن دون أن يفسح مجالاً لأدنى خلل ونقص وزيادة، أن يكون كالبيغاء أو مكبر الصوت، اللذين ليس لدهما أيُّ إدراك عن الكلام والاعتبارات اللغوية، ولا يفهمان معنى تلك الجمل؟ من جهة، فقد رأى الرسول الأكرم ﷺ الحقائق الوحيانية في الأفق المبين^٢. من جهة ثانية، فهو نفسه إنسان أهل لغة، ويدرك معاني ما يسمع، ثمَّ يعيد قولها كما سمعها، وهو أيضًا يتناول تبينها وتفسيرها عند الضرورة، ويرفع إبهامات المخاطبين.

١. مجتهد شبستري، «قراآت نبوي از جهان»، ٩٢.

٢. «وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ» (التكوير: ٢٣).

ب) إذا افترضنا أنّ الرسول الأكرم ﷺ هو كالبيغاء أو مكبر الصوت، بحيث لا يدرك الكلام والاعتبارات اللغوية، ولا يفهم معنى تلك الجمل، أو أنّنا في الأساس كنا نسمع ما نزل على الرسول الأكرم ﷺ عن لسان بيغاء أو جسم جامد، فما الإشكال الذي يطرأ؟ لا شكّ أنّه في حالة كهذه أنّ بعض الأعمال الخاصّة بالنبوّة وأدوارها ستفتقد. على سبيل المثال، لن يتحقّق شأن التبيين، قيادة الأمتّة و...، لكنّ، هل أنّ باب التفاهم سيُسدّ بنحو كامل، وسيُعدّ ما كان يُسمع فاقداً لقائل؟ ليس الأمر لزوماً كذلك، بل إنّ هذه المسألة تتبع معارف وآراء أخرى. لا شكّ أنّه إذا علمنا سلفاً، بأيّ دليل كان، أو اكتشفنا من هذا الطريق وبمعوونة مقدّمات أخرى أنّ ما نسمعه هو رسالة متكلم مدرّك، أراد بأيّ دليل كان عبر إيجاد الصوت في وسيلة كهذه، أنّ يوصل رسالته إلى مسامعنا؛ فإنّه توجد الدلالة التفهيمية والتصديقية، وتتحقّق أركان اللغة من قبيل المتكلم و... كما أنّنا نتلقّى في الحالات المختلفة رسائل الآخرين عبر أدوات تبليغ سمعية وبصرية، ونستدلّ على مقصود القائل. وقد اتّفق أنّ الله تعالى أيضاً أوصل في حالات رسالته إلى مسامع الأنبياء عبر إيجاد علامات صوتية في بعض الأجسام، وهم أيضاً تعرّفوا بسماع تلك العلامات على مؤجد تلك الأصوات، وتوصّلوا أيضاً إلى مقصوده. ومن هذا القبيل، تكلم الله سبحانه وتعالى مع النبيّ موسى ﷺ عبر صوت في الشجرة: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص: ٣٠). بناء عليه، فإنّ الدور التبليغي للنبيّ لا يُحدث أدنى خلل في أركان اللغة. ومن أجل ذلك وعلى طول التاريخ، عدّ الرسول الأكرم ﷺ

الاعتقاد ببشريّة القرآن الكريم بناء على نظريّة أفعال الكلام ❖ ٣١١

وكذلك المسلمون، القرآن الكريم الكلام الإلهي عينه، وكانوا يعتقدون بدلالته اللغويّة، وارتبطوا به، ووضعوه قيد الفهم والبحث. بالإضافة إلى عنصر المتكلم، فإنّ العناصر الأخرى للغة من قبيل السامع، المضمون، سياق النصّ، الجماعة وأهل اللغة... حاضرة أيضًا في الدور التبليغي للنبيّ. كما أنّ الأمر هو أيضًا كذلك في كلّ تبليغ مع الوساطة، ولا داعي لشرحه والتفصيل فيه في هذه الوجيزة. نُقل عن مجتهد شبستري كلام آخر، هو بناء على أنّ القرآن الكريم إلهي، بمثابة دليل على نفي الدلالة التصديقيّة، هو كالآتي:

يُعلم بالنظر الدقّي، أنّ الأمر في حالة كهذه، هو على هذا النحو: أنّه بالنسبة للنبيّ، بناء على تجربته [النبيّية]، فإنّ الجمل التي ينقلها لها قائل واحد، وهو الله أو الملك... أمّا بالنسبة لمخاطبي النبيّ، فلا قائل لهذه الجمل؛ إذ لا يمكن للمخاطبين أن يعلموا ماذا يجول في باطن النبيّ. هل هناك شخص يتحدّث معه؟ مَنْ هو الشخص الذي يتحدّث معه؟ كيف يتحدّث؟^٢.

هذا التصرّو أيضًا مخدوش من جهات، من قبيل أنّه بناء على أيّ دليل وأيّ نظريّة في فلسفة اللغة، شرط المعنى وتحقق التواصل اللغويّ، هو أن نعلم ماذا يجول في باطن المُبلِّغ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي حدود وتقوم وعناصر هذا العلم؟ ما هو مهمّ في هذا المجال، هو أن يتحدّث المتكلم، أعمّ من أن يكون مُعربًا عن كلامه هو نفسه أو كلام غيره بناء على القواعد والعلامات اللغويّة. وأيضًا، أن

١. سياق النصّ Context: المصطلح هنا بالألمانيّة، وهو (Context) بالإنجليزية.

٢. مجتهد شبستري، «قرايت نبوي از جهان»، ٩٣.

يعتقد السامع أنه يقصد تفهيم وانتقال تلك العلامات، حتى إنه لا دخل في المسألة لاعتقادنا أو عدم اعتقادنا بصدق القائل فيما يدعيه من حيث [الصدق] الخبري أو المخبري. ومن هذا الحيث، كان يتضح للمؤمنين، اعتماداً على ادعاء الرسول الأكرم ﷺ للأدلة التي كانت تثبت صدقه الخبري والمخبري، أن الملك الإلهي قرأ عليه ﷺ كلام الله جل جلاله، وهو ﷺ أعاد عليه [على الملك] قراءة كلامه تعالى عينه ذاك. مخالفو الرسول، وأيضاً أولئك الذين لم يكونوا يؤمنون لا بالوحي ولا بالملائكة ولا بالحقائق الساوية الأخرى، أعم من أن يكونوا قد ظنوا الرسول، معاذ الله، كاذباً أو اعتراه وهم. كانوا شركاء مع الآخرين في فهم كلام الرسول الأكرم ﷺ، وكانوا يحاورونه ويحاجونه.

٣. تنوع أفعال الكلام

بناء على نظرية أفعال الكلام، فإنّ التكلم، وبعبارة أخرى، إيجاد التواصل اللفظي ليس هو محض أداء الألفاظ؛ ذلك لأنّ الألفاظ ليست لمجرد النطق، بل نستعملها من أجل أهداف أخرى من قبيل: الإحالة^١، الإسناد^٢ ومضمون الجملة؛ من قبيل: الإخبار، الوصف، الأمر، النهي و... التي هي الفعل المتضمن في الكلام^٣.

-
1. Utterance Act
 2. Referring Act
 3. Propositional Act/ Predicating Act
 4. Content

بناء عليه، فإنَّ كلَّ متكلمٍ يقوم عند أداء كلِّ جملة، على الأقلِّ بثلاثة أفعال مختلفة متزامنة: فعل كلامي، فعل أثناء الكلام، فعل بعد الكلام أو من خلال الكلام^١. أمَّا عنصر التواصل اللغويّ والفعل الكلامي الكامل، فهو الفعل المتضمَّن في القول [التأثيري]^٢. يرى سيرل أن مراد فريجه من مبدأ السياق^٣، هو أن «الألفاظ تُحيل فقط في إطار الجملة»^٤. لهذا، فإنَّ عنصر التواصل اللغويّ، ليس الألفاظ المفردة والعبارات، بل الجملة، والجملة الكاملة هي التي يتحقَّق بها فعل لفظي كامل^٥. التنوع المتزامن لأفعال الكلام، كما الأسس المذكورة سابقًا، لا يمكن له أيضًا أن ينتصب كعائق في طريق تكلم الله تعالى، أن يقوم كلُّ متكلم عند أداء كلِّ جملة على الأقلِّ بثلاثة أفعال متزامنة، وأيضًا أن نستعمل الألفاظ لمقاصد من قبيل: الإحالة، الإسناد، ومضمون الجملة من قبيل: الإخبار، الوصف، الأمر، النهي... فعلى فرض صحّة كلِّ ذلك، فهي [أمور] يمكن أن تنطبق على تكلم الله تعالى أيضًا. بعبارة أخرى: لهذه الأمور جانب نعتي بشكل عام، وتعمل على تحليل أداء مستعملي اللغة، سواء كان ذلك المستعمل هو الله تعالى، أو الإنسان. وأيضًا، أن يكون عنصر التواصل اللغويّ هو الجملة، وليس الألفاظ. فهو يبيِّن أنه، بناء على هذه النظرية،

١. الأفعال الثلاثة المذكورة لها ما يميّزها من وجهة نظر أوستن وسيرل (لمزيد من المعلومات، راجع: عبدلهي، «نظرية أفعال كفتاري»، ٩١ - ١١٩).

2. Searle, *Speech Acts, an Essay in the Philosophy of Language*, 25.

3. Context Principle

4. Frege, *Die Grundlagen der Arithmetik*, 73

٥. سرل، أفعال كفتاري، ١٥٠ - ١١٧؛ وعبداللهي، «نظرية أفعال كفتاري»، ٩١ - ١١٩.

لا يمكن إقامة تواصل لغويّ من دون الجملة، ولن يتحقّق الفعل الكلامي. بناء على هذه النظريّة، فإذا أراد الله تعالى أيضًا أن يقيم تواصلًا لغويًّا مع الناس، فينبغي ألاّ يكتفي بمجرد أداء الألفاظ المفردة والعبارات. أمّا أن يكون استعمال الجملة يتحقّق فقط عند التخاطب مع الناس، وأن يكون الله تعالى عاجزًا عن استعمالها؛ فليس هذا مدلول هذا التصرّوّر.

٤. معنى الفعل مُتَضَمَّن في الكلام

من وجهة نظر سيرل، فعند افتراض شروط خاصّة، نجري كلامًا على ألسنتنا، وبمجرّد أن يفهم السامع ماذا نريد أن نقول؛ نكون قد نجحنا في نقل مقصودنا إليه. في هذه النظريّة، فإنّ المعنى يرجع إلى أثر الفعل المُتَضَمَّن في الكلام، لا إلى الأثر الحاصل من الكلام. بناء عليه، فإنّ تحديد قصد المتكلّم، كافٍ للتواصل اللغوي. أمّا أنّه ما هي ردّة الفعل التي يُبديها السامع بعد فهمه لقصد المتكلّم، فهي أثر نابع من الكلام ولا دور لها في معنى الجملة^١.

لا يدلّ هذا التصرّوّر أيضًا على اختصاصه بالإنسان، ويصدق على كلّ مستعمل يقصد معنى، سواء كان الله أو الإنسان. بعبارة أخرى: بناء على هذه النظريّة، إذا استطاع الله جلّ جلاله أن يفهم المخاطبين قصده، فقد تحقّق التفاهم اللغويّ، ولا يحتاج لشيء آخر. أمّا أنّه كيف يتحقّق هذا الانتقال؛ فهي مسألة أخرى، وسيلها هو الاستعمال الصحيح للعلامات اللغويّة.

١. سرل، أفعال كفتاري، ١٠٩-١٠٧؛ وعبداللهي، «نظريّة أفعال كفتاري»، ٩١-١١٩.

الاعتقاد ببشرية القرآن الكريم بناء على نظرية أفعال الكلام ❖ ٣١٥

يجدر القول إنَّ مجتهد شبستري يرى أنَّ أثر القرآن الكريم في حياة مخاطبي عصر النزول، ومواجهتهم للرسول الأكرم ﷺ، جهود الرسول الأكرم ﷺ والمؤمنين به، معارضة المشركين والأعداء، من قبيل اتهام الرسول الأكرم ﷺ بأنه ساحر، ثمَّ بناء المجتمع والحضارة الإسلامية؛ دليل على تحقق الفعل الكلامي؛ أي الحوار الحقيقي، الذي يمكن فهمه بين النبي الأكرم ﷺ والناس، وهو ما يتعارض مع كون النبي الأكرم ﷺ وسيلة [لنقل] لفظ ومعنى القرآن الكريم، ودليل على أنَّ القرآن الكريم هو كلام الرسول الأكرم ﷺ، لا كلام الله تعالى^١.

بغض النظر عن الإشكالات المختلفة التي ترد على هذا التصوّر، جدير بالقول إنَّ، أولاً: كما تقدّم سابقاً، فإنَّ جميع شروط التخاطب والتفاهم اللغويّ تنسجم مع الدور التبليغي للرسول، وتصادق الفلسفة المعاصرة للغة، التي هي مرتكز تصوّر مجتهد شبستري، على هذه المسألة. ثانياً: بالإضافة إلى كون النبيّ وسيلة لإبلاغ الوحي، فإنَّ للرسول شؤوناً أخرى أيضاً، ترافقت مع جهوده ومساعيه، إلا أنَّ جميع هذه الشؤون هي في طول الدور الرسالي له ﷺ. ثالثاً: بناء على نظرية أفعال الكلام، فإنَّ معنى الفعل مُتَّصَمَن في الكلام، وكيفية تعامل المخاطبين، من قبيل اتهامهم الرسول الأكرم ﷺ بأنه ساحر و... هي مسألة خارجة عن [موضوعة] المعنى ومقام التفاهم. على كلِّ حال، سواء اعتقد أحد بأنَّ هذه المسألة داخلية في المعنى أو خارجة عنه، فالقدر المُتَيَقَّن هو أنَّه لا يمكن من هذا الطريق استنتاج بشرية الوحي الرسالي والقرآن الكريم.

١. مجتهد شبستري، «قراآت نبوی از جهان»، ٩٢.

٥. القاعدية والوقائع المؤسسية^١

أفعال الكلام تعني أن أفعالاً من قبيل: إبداء الجمل، الأمر أو السؤال، الوعد و... تتحقق من خلال قواعد خاصة موجودة من أجل استعمال العناصر اللغوية^٢. ليس المراد بالقواعد التي تمهد لإمكانية القيام بأفعال الكلام، المواضع الجزئية للغات المختلفة؛ كالفارسية والعربية والإنجليزية، بل المراد هو تلك المجموعة من القواعد التأسيسية^٣ والمباني الحاكمة على التكلم بنحو عام. على سبيل المثال، الفعل الكلامي «الوعد»، هو في العرف الإنساني نمط من العهد والالتزام، والتعهد بأداء وظيفة. يقال من أجل تحقق فعل الكلام هذا: «أنا أعد...»، يجب أن يقال بالإنجليزية: «I promise...»، ويقول الفرنسيون: «Je promets...». بناء عليه، فإن اللغات المختلفة تؤدي فعلاً كلامياً واحداً باستخدام ألفاظ مختلفة وأنماط صرفية ونحوية متنوعة. يشير هذا الأمر إلى أن تحقق الفعل الكلامي «الوعد»، يرتبط بالواقع الاجتماعي والمرتبط بالمؤسسة؛ أي اعتبارات وقواعد عقلانية ما وراء اللغة وعالمية، بحيث إذا أدى متكلمو كل لغة العلامات اللغوية الدالة على الوعد، بما يتطابق معها، فإن ذلك يعدّ وعداً^٤. لأجل ذلك، شدّد أوستن وسيرل في تحقق المعنى، بالإضافة إلى قصد التكلم والقواعد الصرفية والنحوية لكل لغة، على دور المؤسسات الاجتماعية؛

1. Institutional Facts

2. Searle, *Speech Acts, an Essay in the Philosophy of Language*, 12&16.

3. Constitutive Rules

٤. سرل، أفعال كفتاري، ١٤٧.

أي اعتبارات وقواعد ما وراء اللغة، ورأيا أنه في تحليل المعنى، يجب أيضًا أخذ حصّة القواعد التي تحكم اللغة بعين الاعتبار^١.

يطرح الآن هذا السؤال: هل يمكن لقاعدية اللغة وارتباطها بالقواعد التأسيسية، التي هي أهم ركن اجتماعي للغة، أن تُعدّ بمثابة مانع لتكلم الله جلّ جلاله؟ الجواب هو: لا، أبدًا! ذلك لأنّ هذه القواعد هي مجموعة اعتبارات وقواعد وضعيّة، تتحكّم في حيازة أفعال كلام المستخدمين للمعنى، ولن تتحقّق من دونها النتائج المرجوة من اللغة. لا تدلّ هذه المسألة، كما المسائل السابقة، على أزيد من هذا: أنه إذا تكلم الله تعالى أيضًا، فإنّ هذه القواعد ستكون مؤثّرة، وسيكون التواصل اللغويّ، علمنا أم لم نعلم؛ واقعا تحت تأثيرها. المثير أنّ أغلب مستعملي اللغة، يتحدّثون من دون علم بهذه القواعد^٢، وينظّمون أفعالهم الكلامية من دون أدنى مشكلة. إذا كان الأمر كذلك، فالله الذي ليس أنّه، وحسب، عالمٌ بجميع المواضع اللغوية للناس، بل هو الذي مكّن الإنسان من هذا الأمر، وأنعم عليه بنعمة البيان^٣؛ من باب أولى أن يكون قادرًا على إيجاد التواصل اللغويّ.

الجانب الحوارى للمعنى

بالإضافة إلى مباني نظرية أفعال الكلام، فإنّ المسألة الأخرى التي يشدّد عليها مجتهد شبستري، هي الجانب الحوارى والجدلي للمعنى.

١. لمزيد من الاطلاع، راجع: سرل، أفعال كفتارى، ١٦٧ - ١٣٧.

٢. عبداللهي، «نظرية أفعال كفتارى»، ٩١ - ١١٩.

٣. ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١ - ٤).

المراد بـحوار أو جدلية المتكلم والسامع، هو في احتمال أن يحمل كلام وقصد المتكلم شطراً من المعنى، وأن ينتج السامع الشطر الآخر. أمر كهذا هو خلاف ما تفاهم عليه مستعملو اللغة، ولا يدلّ عليه أيّ مبنى من مباني نظرية أفعال الكلام. الاحتمال الآخر هو أن يكون دور السامع هو مرافقة المتكلم خطوة بخطوة، وتلقّي الجمل والتمعّن فيها فقط، واكتشاف قصد المتكلم. تتوافق أيضاً توضيحات مجتهد شبستري مع هذا المعنى. بعد تبينه أن كلّ كلام شفاهي هو «نشاط إنساني» يتضمّن «حيثاً» التفاتياً وقصدياً، يضيف:

إنّه ليس فقط أنا المتكلم الذي يؤدّي حركة «المُضي»، السامع شريك هو أيضاً في هذه الحركة، والفهم نفسه هو فعل مُضي. ينتظر السامع دائماً [ليعرف] ما هي غاية المتكلم، وما هو قصده، وإلى أين سيصل. هذا الانتظار، ومتابعة حركة المتكلم لحظة بلحظة، هو فعل «مُضي السامع»^١.

من المناسب الآن أن نسأل: ما هو الفرق من هذه الناحية بين اللغة الكلامية والكتابية، وما هي التحفة الجديدة في هذا المجال التي اتحفتنا بها فلسفات اللغة التي يعتمد عليها مجتهد شبستري؟ على فرض المعنى في اللغة الكلامية، أو أن يكون التواصل اللغويّ بنحو عام، حصيلة تعاطي المتكلم والسامع؛ فهل تحدث هذه المسألة مشكلة في التكلم الإلهي إلى درجة أنّه يلزم على أساسها الاعتقاد بأنّ القرآن كلام النبيّ في اللفظ والمعنى؟ أم أنّه لا تأثير لها في هذا المجال؟ وعلى فرض الصحة، فليست مانعاً لتكلم الله تعالى وإلهية القرآن الكريم. بناء على وجهة نظر

١. مجتهد شبستري، هرمنوتيك: كتاب وسنت.

مجتهد شبستري، كما قلنا فيما تقدّم، فإنَّ أركان التواصل اللغويّ من قبيل المتكلّم والسامع... غير موجودة في أنّ القرآن إلهيّ، وسيكون إنتاج المعنى أمرًا غير ممكن. لكنّ هذه المسألة أخذت سابقًا بعين الاعتبار من حيث فقدان المتكلّم، وهي تؤخذ الآن من حيث فقدان السامع؛ إذا لم يكن لي أنا المتكلّم أيُّ مخاطب، فلن أتمكّن من إنتاج المعنى، إلّا إذا افترضت لنفسني عدّة مخاطبين فرضيين، أو تحدّثت مع نفسي. أساسًا، إنَّ التكلّم له حقيقة حوارية وتخطبية^١.

يبدو أنّ كلامًا كهذا أيضًا لا يمكن له أن يكون حجّة لمجتهد شبستري في الاعتقاد ببشرية القرآن الكريم؛ ذلك لأنّ كون القرآن الكريم هو كلام الله تعالى أو كلام الرسول الأكرم ﷺ؛ لا يشكل فرقًا كبيرًا من ناحية المخاطب. وفرقه الوحيد هو أنّه إذا كان القرآن الكريم كلامًا نبويًّا، فإنّ أناسًا آخرين أيضًا غير الرسول، هم مخاطبوه، أمّا إذا كان إلهيًّا، فإنّ الرسول الأكرم ﷺ هو أيضًا من ضمن المخاطبين، وتتسع دائرة المخاطبين، إلّا إذا كان للسيد مجتهد شبستري تعريفه الخاصّ للمخاطب، وهو أمر جدير بالبحث بشكل منفصل.

الخلاصة والاستنتاج

كان المدعى الأساسي لمجتهد شبستري أنّه بناء على نظرية أفعال الكلام، ففي الفلسفة المعاصرة للغة، سيكون الاعتقاد بإلهية القرآن الكريم، لفظًا ومعنى، مساويًا لنفي جميع الأركان الحتمية للغة، من قبيل: محور المتكلّم، السامع... ولا

مفّرٍ من أن نعتقد بأنّ القرآن الكريم هو كلام الرسول الأكرم ﷺ لفظاً ومعنى. أمّا ما نتوصل إليه من خلال تحليل بعض ادّعاءات مجتهد شبستري ونظريّة أفعال الكلام، فهو الآتي:

١. اعتماد مجتهد شبستري على النظريّات المعاصرة لفلسفة اللغة، خالٍ من أيّ استدلال وتفسير منطقي، بحيث وكأنّه من وجهة نظره، فإنّ محض ظهورها [النظريّات] في العصر الحديث، ولأئمّها مقبولة لدى بعض فلاسفة الغرب؛ كافٍ للدعوة إلى قبولها وقبول نتائجها، والإعراض عن الحتميّات المعرفيّة والدينيّة.

٢. لا شيء من أركان ومباني نظريّة أفعال الكلام، من قبيل: ١. مبنى إمكانيّة التعبير، ٢. تعلق المعنى بقصد المتكلّم والاتّفاقات اللغويّة، ٣. التنوع المتزامن لأفعال الكلام، ٤. تساوق المعنى الكامل للجملة مع الفعل المتضمّن في الكلام، ٥. قاعدية اللغة وتأثيرها بالوقائع المؤسسيّة واعتبارات ما وراء اللغة، ليس لديها أدنى تعارض مع الرأي السائد بين المسلمين في مجال كون الوحي القرآني إلهياً، لفظاً ومعنى، وهي تتناغم معه بشكل كامل.

٣. بالإضافة إلى الاعتماد غير المعقول على النظريّات المعاصرة لفلسفة اللغة، ارتكب مجتهد شبستري مغالطات من قبيل: مغالطة القياس مع الفارق، واستدلالات معتلّة وعقيمة. من قبيل أنّه تصور أنّ تبليغ رسالة الله جلّ جلاله من خلال الرسول الأكرم ﷺ، يستلزم الاعتقاد بأنّ الرسول الأكرم ﷺ كعباءة أو كمكبّر صوت، وأنّه يفتقر إلى أوّل أركان التواصل اللغويّ.

٤. تفتقر بعض ادّعاءات مجتهد شبستري إلى التوضيحات الكافية، ويمكن أن

الاعتقاد ببشرية القرآن الكريم بناء على نظرية أفعال الكلام ❖ ٣٢١

تشتمل على استعمال غير صحيح ومُتَكَلَّفٌ للعبارات، وخالٍ مِنَ الثمرة فيما يتعلَّق بالاعتقاد ببشرية القرآن الكريم. من هذا القبيل، يمكن تبين نظرية حوارية أو جدلية المعنى.

النتيجة، هي أنَّ جميع استنادات مجتهد شبستري على نظريات فقه اللغة فيما يتعلَّق بالاعتقاد ببشرية القرآن الكريم؛ غير صائبة، ومتكلفة وتحميلية، كما اتُّهم من قبله أيضًا نصر حامد أبو زيد بسوء فهم نظرية سوسور في فقه اللغة، وتحميلها على نظريات معرفة القرآن^١.

١. لمزيد من الاطلاع، راجع: توکلي بينا، «برسى تطبيقى آراى ابوزيد وفرديناند دو سوسور»،

المصادر

۱. أحمدی، بابک، ساختار و تأویل متن (هیكلية و تأویل النص)؛ طهران، منشورات مرکز، ۱۳۷۰ هـ. ش.
۲. توکلی بینا، میثم، «بررسی تطبیقی آرای ابوزید و فردینان دو سوسور» (دراسة مقارنة لآراء أبو زید و فردینان دو سوسور)؛ مجموعه مقالات جریان شناسی و نقد اعتزال نو (مجموعه مقالات معرفه و نقد تيار الاعتزال المعاصر)، ج ۴، طهران، منشورات پژوهشگاه فرهنگ و اندیشه اسلامی، ۱۳۹۳ هـ. ش.
۳. سرل، جان آر، أفعال گفتاری، الترجمة: محمد علي عبدالله، قم، منشورات پژوهشگاه علوم و فرهنگ اسلامی، ۱۳۸۵ هـ. ش.
۴. عبداللهي، محمد علي، «نظريه افعال گفتاری»؛ مجلة پژوهش های فلسفی - کلامی، عدد ۲۴، ۱۳۸۴ هـ. ش.
۵. مجتهد شبستري، محمد، زبان دینی عاری از خشونت و سلامت اجتماعی (اللغة الدينية خالية من العنف، وسلامة المجتمع (محاضرة))، ۱۶ / ۰۹ / ۲۰۱۴،
<http://mohammadmojtahedshabestari.com/>
۶. _____، «قراءت نبوی از جهان» (قراءة نبوية عن العالم)؛ مجلة مدرسة، العدد ۶، ۱۳۸۶ هـ. ش.
7. Austin J.L.; *How To Do Things With Words*; Oxford University Press, 1962.
8. Frege, G.; *Die Grundlagen der Arithmetik*; Breslau, 1884.
9. Keller, Albert; *Sprachphilosophie*; Freiburg, Verlag Karl Alber, 1989.

الاعتقاد ببشرية القرآن الكريم بناء على نظرية أفعال الكلام ❖ ٣٢٣

10. Lepor, Ernest and Van Gulick (eds.); *John Searle and His Critics*, Blackwell, 1991.
11. Rosenberg, Jav F. and Charles Travis, (eds); *Reading in The Philosophy of Language*, New Jersey, Prentice-Hall inc. Inglewood cliffs, 1971.
12. Searle, John; “Austin on Locutionary and Illocutionary Acts”, *The Philosophical Review*, Vol. 77, No. 4. (Oct., 1968), pp. 405-424.
13. ———; *Speech Acts, an Essay in the Philosophy of Language*, Cambridge University Press, 1969.

